

الاغتراب الوجودي نسقاً متأصلاً في روايات بثينة العيسى "أنموذجاً"

حنان طه دويح الهييتي

بإشراف: أ. د. شيماء جبار علي

جامعة الأنبار / كلية التربية للبنات / قسم اللغة العربية

Existential Alienation as an Inherent Paradigm in the Novels of Bothayna Al-Essa: A Case Study

Prepared by: Hanan Taha Duwaih Al-Heeti

Supervised by: Asst. Prof. Dr. Shaimaa Jabbar Ali

Affiliation: University of Anbar College of Education for Women Department of Arabic Language

المخلص:

إن النصوص الأدبية الحديثة تشكل أحد أبرز التيارات الفكرية ضمن مرحلة ما بعد الحداثة، غير أنها لا تتنازل شرعيتها الأدبية إلا باستيفائها مقومات النقد الثقافي التي تُبرز قيمتها الجمالية والمرجعية لفكرية، ويستلزم هذا أن تمتلك الكاتبة وعياً بليغاً لهذه المقومات لجعلها مبدعة متمكنة، لها القدرة على توظيف الأنساق الثقافية المختلفة في نصها، فلا تبقى هذه النصوص مكشوفة ومباشرة؛ وإنما تكتنز أفكارها خلف حجب رمزية، مما يفضي على النص عمقاً دلاليًا وجماليًا. لذا جاءت الدراسة على وفق منهج النقد الثقافي لقراءة النصوص السردية قراءة ثقافية لرصد الأنساق المضمرّة التي عن طريقها تُفك شفرة النص ورصد قصدية الخطاب، إذ يقوم البحث على مهاد نظري تناولنا فيه مفهوم الاغتراب الوجودي نسقاً متأصلاً، يليه المهاد التطبيقي الذي يركز على تحليل النصوص وتوظيف ما تخفيه من رؤى وأبعاد ثقافية. الكلمات المفتاحية (الاغتراب الوجودي، التأصل، النسق).

Abstract

Modern literary texts represent one of the most prominent intellectual currents within the postmodern era. However, they only attain literary legitimacy by fulfilling the requirements of Cultural Criticism, which highlights their aesthetic value and intellectual references. This necessitates that the female writer possesses a profound awareness of these elements to become an empowered creator, capable of employing various cultural paradigms within her text. Consequently, these texts do not remain exposed or direct; rather, they conceal their ideas behind symbolic veils, imparting a semantic and aesthetic depth to the work. Accordingly, this study adopts the methodology of Cultural Criticism to conduct a cultural reading of narrative texts, aiming to monitor the hidden patterns (*latent formats*) through which the text's code is deciphered and the discourse's intentionality is identified. The research is built upon a theoretical framework that addresses the concept of existential alienation as an inherent paradigm, followed by an applied framework focused on analyzing the texts and utilizing the cultural visions and dimensions hidden within them.

Keywords: Existential Alienation, Inherence (Rootedness), Paradigm (Pattern).

المقدمة:

إن الرواية تُعدّ من أكثر الأجناس الأدبية قدرة على استبطان تحولات المجتمع وتفكيك بنياته الثقافية، فهي جنس أدبي لا تقتصر على كونها عمل سردي فقط، إنما هي صورة تعكس الهياكل الثقافية للمجتمعات ومعاناتها، وتلتحف بأنساق ثقافية تقصح عن أيديولوجيات وقيم معينة، ومن بين الأنساق التي تسللت إلى النصوص الروائية بشكل متكرر يبرز الاغتراب الوجودي نسقاً متأصلاً نموذجاً للخطاب المتسلط، الذي يعيد إنتاج هيمنة المركز ويقصي الآخر وفق آليات متعددة، لا تخلو منها نصوص روائية كثيرة، لاسيما في أدب ما بعد الحداثة، وهذا ما تجسده الكاتبة بثينة

العيسى في رواياتها، وذلك بتضمينها الاغتراب الوجودي بعدّه ظاهرة ثقافية وفق منظور النقد الثقافي. يبدأ البحث بتأصيل المفهوم في ضوء النظرية النقدية والثقافية، ثم ينتقل إلى تحليل نماذج روائية للكشف عن الآليات السردية التي ترسخ هذا النسق مع التركيز على الأنساق المضمرّة التي تدعم حضورها داخل النصوص الروائية.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في توظيف كيفية تجسيد روايات الاغتراب الوجودي كنسق متأصل يُعيد إنتاج هيمنة المركز وفق أدوات سردية وثقافية، فضلاً عن تحليل الآليات التي يضمّر بها هذا النسق تأثيره داخل النصوص الأدبية.

أهمية البحث:

إن أهمية البحث تكمن في إلقاء الضوء على نسق الاغتراب الوجودي بعدّه أحد الأنساق الثقافية المضمرّة التي تؤثر في بناء السرد الروائي، الأمر الذي يسهم في فهم أعمق للعلاقات السلطوية والثقافية داخل النصوص الأدبية، ويوفر أدوات نقدية لكشف عن البنى المهيمنة وآلياتها.

أهداف البحث:

(١) الكشف عن تمثيلات الاغتراب الوجودي في النصوص الأدبية بوصفها نسقاً ثقافياً متجذراً تجاوز البعد النفسي الفردي إلى الأبعاد الجمعية والاجتماعية.

(٢) إبراز دور النقد الثقافي في فك شفرات الأنساق المضمرّة وتحليل دلالاتها.

(٣) إبراز الجوانب الدلالية والجمالية التي يوظفها النص والتي تعبر عن الاغتراب الوجودي كالرموز، والصور، والفضاءات المغلقة.

(٤) دراسة الآليات السردية التي تُسهم في ترسيخ النسق داخل النصوص.

المهاد النظري: الاغتراب في اللغة هو من مادة "عَرَبَ" ويدل على البُعد فجاء الغرب والغربة: الذهاب والتتحي والنوى، والغرب والغربة: النزوح عن الوطن، وكذلك الاغتراب والتغريب، والتغريب: النفي عن البلد. الغريب: البعيد عن الوطن، والجمع: غرباء ومؤنثة غريبة^(١) وجاء في المعجم الوسيط، "عَرَبَ في الأرض أمعن فيها فساfer سفيراً بعيداً، اغترب فلان أي نزح عن الوطن والغربة هي النوى والبعد".^(٢) يتمثل الاغتراب الوجودي في عيش الفرد حياة اجتماعية وسط المحيطين به، ولكن بداخله يشعر بأنه غريب، ومقطوع عن أي رابط حقيقي، ثمة أن هناك معاني اصطلاحية للاغتراب بأنه "وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته وبين البيئة المحيطة له بصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء والسخط والقلق وما يصاحب ذلك من سلوك إيجابي، أو الشعور بفقدان المعنى واللامبالاة ومركزية الذات والانعزال الاجتماعي وما يصاحبه من أعراض إكلينيكية"^(٣) وقد يرى آخرون بأنه العزلة والانعزال وكذلك الانسلاخ عن المجتمع، والعجز عن التلاؤم، فضلاً عن الإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع واللامبالاة وعدم الشعور بالانتماء مع فقدان الشعور بمعزى الحياة^(٤). في زمنٍ تتسارع فيه الأحداث وتعلو فيه الأصوات، يقف الإنسان على منصة الحياة متأملاً من بعيد، وكأنه مجرد متفرج لا فاعل، إنه ذلك الإحساس المبهم بالانفصال، الذي لا ينبع من عزلة مادية بقدر ما ينمو من اغتراب داخلي، فتصبح الذات غريبة عن نفسها، وتغدو الحياة كأنها مسرحية بلا نص محدد، في تلك اللحظات يتسلل ما يصطلح الفلاسفة على تسميته بـ (الاغتراب الوجودي) ذلك الشعور الجارف بالغربة عن العالم، وعن الآخرين؛ بل وحتى على المعنى ذاته فضلاً عن أنه ليس مجرد نوبة عابرة؛ إنما هو سؤال متجدد حول الجدوى والغاية من أين أتينا؟ ولماذا نحن هنا؟ وما معنى أن نعيش في واقع لا نعثر على صورتنا الحقيقية؟

إن الاغتراب الوجودي يبرز ليس مجرد مفهوم فلسفي أو حالة نفسية فردية في ظل التحولات الحضارية المعاصرة التي تتشابك فيها أنساق الهيمنة الثقافية؛ بل وإنما نشأ كنسق متسلط يمارس سلطته مع آليات النقد الثقافي في العصر الحديث، فضلاً عن إنه يحتل موقعاً مركزياً من خلال تشخيص أزمات الذات التي تواجه انفصلاً جوهرياً عن جوهرها وعن العالم أيضاً، "والاغتراب ظاهرة قديمة قدم الإنسان في هذا الوجود، فمنذ أن تكونت المجتمعات الأولى نشأت معها وفي ظلها الأزمات التي تتمخض بشكل أو بآخر عن أنواع من الاغتراب، لذا فهي ظاهرة لا ترتبط بمجتمع معين؛ بل هي ظاهرة نترصدها وندرسها في كل أنماط الحياة الاجتماعية وإن كانت تظهر بغير شك نتيجة لتوافر شروط وظروف معينة، عانى منها الفرد وواجهها وفقاً لحجم طاقاته العادية والروحية".^(٥) "وأهم مظاهر الاغتراب تظهر في حالات العجز، واللامعيارية، وتفكك القيم، وغربة الذات، وفقدان المعنى، وكذلك العزلة الاجتماعية. فإن الظروف المعيشية، وانعدام الحرية والمساواة في ظل المجتمعات دفعت الفرد إلى الانكفاء عن نفسه والشعور بالاغتراب، إذ تنعزل الشخصية المغتربة التي أخفقت في تحقيق الانسجام والتماهي مع أعراف المجتمع وقوانينه، لتلجأ إلى الانسحاب"^(٦) من الصعب تحديد مفهوم واضح للاغتراب؛ لأن معانيه تتداخل فيما بينها وبين أنواعه المختلفة، فمن أنواع الاغتراب: الاغتراب الثقافي هو حالة من الانفصال النفسي والاجتماعي يعيشها الفرد فيشعر بالتباعد وعدم الانتماء للثقافة السائدة في محيطه المجتمعي، وتتمثل هذه

الثقافة بالمنظومة المتكاملة للقيم والعادات والتقاليد فضلاً عن المعايير السلوكية التي قد تشكل الإطار المرجعي المنظم لسلوك الأفراد^(٧)، أما عن الاغتراب الاجتماعي فتشفي في كثير من المجتمعات. بسبب! غياب الامتثال للقوانين المنظمة للحياة الاجتماعية، كما يسهم المجتمع ذاته في ترسيخ مظاهر القمع والتسلط فيعزز ذلك الشعور بالاغتراب بين أفرادها. "لذا فيشعر الفرد بالعزلة وضعف التفاعل بينه وبين الآخرين، مما يؤد البرود الاجتماعي مع تراجع العلاقات الإنسانية ويتجسد هذا البرود في ضعف الروابط الاجتماعية وقلة الإحساس بالمودة والألفة مع المحيطين" ^(٨) ، فضلاً عن الاغتراب الديني فهو ظاهرة معروفة في الطبيعة الإنسانية يبحث الفرد عن انتماء وجداني قد يستجيب لحاجاته الروحية هذا يدفعه إلى الانتقال من مرحلة دينية إلى مرحلة أخرى لتحقيق التوازن والتوافق بين إيمانه وتحولاته الفكرية، وثمة نوع آخر هو الاغتراب الروحي "بمعنى اغتراب الإنسان عن الزمن الحالي الذي يعيشه والالتجاء إلى تمجيد الماضي الذي يكون له موضوعاً جمالياً فقط، والاشادة به فينفصل عن تاريخه الحالي ليعيش بوجوده وعقله في الزمن القديم" ^(٩) ، علماً أن هناك أنواع كثيرة للاغتراب لكنها ليست موطن اهتمام للاضمارات التي سوف يتسلط عنها البحث.

ويمكن الإشارة إلى أن هناك تفرقة مهمة بين مفهومي الغربة والاغتراب، "أن الغربة هي انتقال الإنسان من مكان إلى مكان، أما الاغتراب هو الانشطار أو الانقسام داخل النفس الإنسانية مثل انقسام الخلايا، فعملية نمو الوعي هي ظاهرة من ظاهريات الوعي حتى تدخل في ظاهرة الوجود." ^(١٠) يستوقفنا النص عند قضية الاغتراب الوجودي بعده نسقاً متأصلاً في نصوص بثينة العيسى ويتشكل وفق تجربة الذات في مواجهة سلطة معيارية تُقصيها رمزياً، تكشف عن حالة انقسام داخلي بين وعي الذات بذاتها وبين نظرة الآخر إليها، فيتولد الندم والقلق والشعور باللاجدوى هذا مما يعمق الإحساس بالعزلة الوجودية ففي رواية ارتطام لم يسمع له دوي ما نجده على لسان الراوية قائلة:

"يدك تقبض على كتفي:

- اسمعي، لا تكوني عنصرية ضد نفسك، قللي بأنك لم تحظي بتدريب مكافئ يؤهلك للمثول في مسابقة كهذه فقط.

- لأنني عربية!

هل انقبت المشهد على رأسه؟ ألم تكن أنت ذاتك تؤمن باستحالة اجتيازي الاختبار لأسباب تسميها الآن "عنصرية" مضادة؟ كان القلق يساورك إذ أنا أفقد إحساسي بالانتماء شيئاً فشيئاً، وكأن الندم يداخلك، وكأنك ما كنت السبب ، لكن.. هذا الانزعاج الذي يملوك لم يكن يعني، كنت ناظمة. أحقق في السقف، وأنت تتفتخ دخان سجايرك ، أرمقك بارتياح ، ثمة ما يضايكك ، وجهك اليوم أكثر اصفراراً من المعتاد ، هالأت سوداء تحضر عينيك ، وكثير من الصمت يجول بيننا لكثرة ما يجب أن يقال " ^(١١) يكشف هذا النص السردى عن حضور الاغتراب الوجودى بوصفه نسقاً ثقافياً مضمرًا، يتجاوز الدلالات السطحية للحوار ، ليعكس توتر العلاقة بين الذات وهويتها داخل سياق منظومة تفرض شروط الانتماء والاعتراف ، لذا فالنص وظف خطاباً سلطوياً يحمل الذات مسؤولية إخفاقها ، واتضح ذلك بعبارة (لا تكوني عنصرية ضد نفسك) ، في حين إن الجملة اللاحقة (أنني عربية) وظفت عن وعي الذات بأن الإقصاء الذي تتعرض له ليس فردياً؛ إنما له ارتباط بانتماءات عرقية وثقافية بالوقت ذاته ، فضلاً عن إن الشخصية تشعر بأن هويتها الأصلية تحولت إلى عائق أمام الاعتراف بها؛ وذلك نتيجة وصف الاغتراب انفصلاً بين الذات وفنائها الاجتماعي مما يغول ذلك بتحويل الانتماء الثقافي من مصدر اعتزاز إلى علاقة إقصاء رمزية داخل سياق النظام الثقافى المهيم، أما المسكوت عنه فيتجلى وفق مقارنة خطابية بين ما يُقال وما يُخفى فالسرد في النص يحاول نفي التمييز من خلال قول الراوي (ألم تكن انت ذاتك تؤمن باستحالة اجتيازي الاختبار لأسباب تسميها الآن "عنصرية" مضادة؟)، أن النفي ذاته يكشف وجود اعتراف ضمني بوجود منظومة تمييزية، فضلاً عن تحول المشكلة البنوية إلى مشكلة فردية، إذ يُطلب من الذات أن لا تكون (عنصرية ضد نفسها) وكأن المشكلة ناتجة من ضعفها الذاتى لا من البنية الثقافية، وإن هيمنة المعيار الثقافى الخفى يجعل الهوية العربية أقل قابلية في القبول داخل فضاء المنافسة، كما وإن تجليات الاغتراب النفسى والوجودى ضمن المقطع السردى (أفقد إحساسي بالانتماء شيئاً فشيئاً، وكأن الندم يداخلك....). فيشير هذا الى حالة من تفكك العلاقة بين الذات والعالم المحيط بها، فتصبح الشخصية غير قادرة على تحديد موقعها ضمن النظام الاجتماعى، ومحاولة الطرف الآخر التبرؤ من المسؤولية فهذا يعمق الاغتراب ؛ لأن السلطة التي أنتجت الإقصاء تنفي دورها فيه، ثمة أن وجود إشارة دلالية نصية (وكثير من الصمت يجول بيننا لكثرة ما يجب أن يقال)، فإن الصمت هنا آلية ثقافية للكبت وليس مجرد توقف للحوار فيصبح الصمت نتيجة لتراكم الخطابات المكبوتة التي لا يتيح المجال في الإفصاح عنها داخل بنية السلطة. وفي سياق النقد الثقافى، إن هذا الصمت يكشف عن مساحة القمع الرمزي الذي يمنع الذات من الإفصاح الكامل عن اغترابها. لذا يُعد مفهوم الاغتراب من المفاهيم المركزية في العلوم الإنسانية، يستعمل لوصف مظاهر الخلل في العلاقة بين الإنسان والطبيعة والمجتمع، كما يشكل مدخلاً منهجياً تعتمد العلوم الإنسانية في تحليل الظواهر الاجتماعية. ^(١٢) يتأسس النص وفق رؤية اغترابية تجعل

الوجود متوقف ضمن الواقع المعيش فتقدم الحياة بوصفها فضاءً مغلقاً فاقدًا للمعنى، مقابل تصور مقايض للحقيقة يتشكل خارج هذا الإطار، فتوثيق الجملة المحورية التي تقيد بأن (الحياة الحقيقية لا تبدأ إلا بعد الموت) توظف عن انقلاب دلالي يعيد تعريف الوجود، يعكس شعور الذات بانفصالها عن واقعها والعجز عن احتوائها. ومن تجليات تلك الأنساق ما جاء على لسان الراوي في رواية عائشة تنزل إلى العالم السفلي قائلاً: "عدنان يخاف من الكتب أكثر من الألغام، فهي قادرة على تججير ألف سؤال في ثانية واحدة. خلاصة القول: البلاد مقبرة والحياة مقبرة، وأنا ميتة منذ زمن، وحياتي الحقيقية لم تبدأ إلا بعد أن مت، حياتي الحقيقية لم تبدأ إلا بعد أن عرفت بأن لي وطنًا خارج اللحم، خارج المادة.. بأن الروح، لحظة تعتق خارج قفص الصدر، تطفو بحيادٍ فوق آلامها الخاصة، فكيف لا يكون الموت هو أرض ميعادي؟! (١٣) يوضح النص عن أزمة العلاقة بين الواقع الاجتماعي والفرد وثمة إشارة دلالية لافتة بدأ بها النص عندما يقرر أن (عدنان يخاف من الكتب أكثر من الألغام) هذه مفارقة توظف عن انقلاب القيم داخل البنية الثقافية، فضلاً عن أن الخطر لا يتمثل في العنف المادي (الألغام) بقدر ما يتمثل في المعرفة التي تمتلك قدرة رمزية وتجبرية وفق الأسئلة؛ لذا تصبح الكتب مصدر للتهديد؛ لأنها ترزعزق اليقين السائد وتفتح أفق الوعي وفق قول الراوي إنها قادرة على (تججير ألف سؤال في ثانية واحدة)، وبهذا يفضي وجود نسق ثقافي خفي يخشى الوعي النقدي، لأن السؤال يمثل بداية التمرد على الواقع المفروض، الأمر الذي يضع الشخصية في مواجهة مباشرة مع منظومة اجتماعية تقاوم المعرفة، لذا فإن النص يضع القارئ بين قوتين إحداها تدميرية والأخرى تغييرية، الألغام تقضي إلى تحجم الهدف ضمن حدود جغرافية محددة بينما الكتب تسهم في إنتاج سيولة فكرية تعمل على اختراق الحدود النفسية. والثقافية والاجتماعية من دون ضجيج، الأمر الذي يجعل أثرها تحويلياً على العكس من الألغام التي يكون أثرها تدميراً آنياً، فالنص يستنطق أبعاد الخوف ولا سيما حين تفقد السيطرة على العدوى الفكرية التي تتأججها الكتب فيكون أثرها أكثر سعة مما هو متوقع. لذا يتعمق المعنى في خلاصة القول: "إن البلاد مغبرة، والحياة مقبرة"، هناك حالة من الانطفاء الوجودي عندما تتحول الصورة إلى بنية رمزية، فإن الغبار دال على هشاشة وفناء العالم المادي في حين أن المقبرة تقضي بانقضاء الحيوية مع انقطاع الأفق، فهذه الثنائية الدلالية توحى بإحساس عميق ضمن الفضاء الاجتماعي جعلته يُفقد القدرة على احتضان الحياة الفاعلة، فيدفع الذات إلى الشعور بالموت المعنوي قبل الموت الجسدي، لذا تعلن الساردة: "وأنا ميتة منذ زمن"، فهذا تصريح لا يشير إلى موت حقيقي؛ وإنما يدل على حالة اغتراب وجودي تتجسد في فقدان المعنى والإحساس بالانفصال عن الواقع المحيط به، بيد إن ذروة الاغتراب تبلغ في عبارة "وحياتي الحقيقية لم تبدأ إلا بعد أن مت"، حيث تتحول العلاقة التقليدية ما بين الموت والحياة، ليصبح الموت رمزاً للتحرر من أي قيد يفرضه الواقع الاجتماعي، لذا الموت هنا ليس نهاية بيولوجية؛ إنما هي لحظة إدراك ووعي تظهر فيها الحقيقة، وإن عبارة "لي وطنًا خارج اللحم، خارج المادة.. تشير إلى انتقال الانتماء من المستوى المادي إلى المستوى الرمزي أو الروحي مما يعكس رغبة الذات في تجاوز حدود الواقع المحسوس ضمن فضاء أكثر معنى وحرية أيضاً، ويحيل النص إلى تصور وجودي للذات ويتحقق ذلك عندما تتخلص الروح من قيود الجسد وكذلك من ثقل الواقع الاجتماعي في (قفص الصدر) يتحول إلى استعارة للقيء، بينما تمثل الحركة فعل تحرر رمزي من المعاناة. فالمسكوت عنه في النص يظهر بنقد ضمني للواقع السياسي والاجتماعي الذي جعل الحياة شبيهة بالمقبرة، وجعل المعرفة كحالة خطيرة يخشاها البعض، كان يلمح ذلك وفق سلسلة من الرموز فمثلاً (الغبار، المقبرة، الخوف من الكتب وكذلك الشعور بالموت المبكر) مما يكشف عن بنية ثقافية تكبت الوعي وتقيد الحرية، الأمر الذي يدفع الفرد إلى الخلاص من هذا الواقع، لقد كشف النص عن مجموعة من الثنائيات المتقابلة؛ (الحياة والموت، الجسد والروح، المعرفة والجهل) فتكشف هذه الثنائيات عن وجود صراع داخلي تعيشه الذات بين الانتماء إلى عالم مادي ضيق وبين تطلعها إلى فضاء أكثر اتساعاً، فمن هنا يتجسد الاغتراب الوجودي كحالة وعي مأزومة لا تجد سبيلاً مباشراً لتغييره، كما تلوذ بإعادة تأويل الموت والحياة بحثاً عن معنى بديلاً للوجود، لذا إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يملك وعياً كافياً ليدرك انفصاله عن ذاته، ويقظة ذهنية تمكنه من استشعار اغترابه عن محيطه؛ إذ يشكل الإحساس بالغربة جزءاً من نسيج وعيه وتجربته الحياتية. (١٤) وفي نص آخر يتضح الاغتراب بأنه ليس مجرد شعور عابر؛ إنما أصبح حالة وجودية تكشف عن انعدام الألفة مع المكان والأشياء، فضلاً عن شعور عميق بالانقطاع والتواصل مع العالم. نلمس في الرواية نفسها ما جاء على لسان الراوي قائلاً: "أحسُّ بالألم في كل ما أراه، ما أشمه، وما أسمع. الصمتُ المستشري.. مؤلم، الأثاث البليد الذي يرمقني بحيادٍ.. مؤلم، شاشة التلفزيون مؤلمة، النافذة مؤلمة، الستائر مؤلمة، الشرفف المرتب مؤلم، المزهرية الفارغة مؤلمة، هاتفي الذي لا يرن يؤلمني، أسفل رقبتني يؤلمني، الفراغ الشاسع في صدري يؤلمني، الثقوب في روحي، الشرخ في جدار غرفة الغسيل المطبخ الذي تفوح منه رائحة الدهن، مربعات السيراميك، صنوبر المياه الذي يبكي بين كفتي، كل شيء.. كل شيء. لقد عاد كل شيء إلى ما كان عليه، المكان أخرسٌ واسع العينين، الجدار متواطئة بخبث، الماء في قاع المزهرية آسن ويحس بالوحدة، الكأس المشروخة، والوجه المكسور في البرواز. أحاول عبثاً، أن أعود إليّ، إلى أناي القديمة، قبل أن أجرب العالم، قبل يوم أمس، من كان يظن بأن يوماً واحداً تقضيه خارج خارطة أملك

الذي اخترت بملئ وعيك، كفيلاً بتغييرك على هذا النحو؟" ^(١٥) يبدأ النص ضمن سلسلة من الإدراكات الحسية المتتابعة "أحس بالألم في كل ما أراه، ما أسمه، وما أسمع"، هذه صيغ دلالية تقضي عن وجود اختلال في العلاقة بين الذات والعالم، فالإدراك لم يعد وسيلة تواصل أو معرفة؛ إنما تحول إلى أداة أو قناة لنقل المعاناة، فيتجلى تحويل الأشياء المألوفة إلى علامات اغتراب ضمن نسق خفي بدليل التكرار الوارد في كلمة (مؤلم): "مؤلم، الأثاث الذي يرمقني بحداد .. مؤلم، شاشة التلفزيون مؤلمة، النافذة مؤلمة..." هذا التكرار يكشف عن تفكك المعنى الوجودي للأشياء، فتتحول الأشياء المنزلية البسيطة إلى رموز للعزلة أو للضغط النفسي، فإن البيت الذي يُفترض أن يكون فضاء للأمان تحول إلى ساحة لتجسيد الألم والوجع، أو يشير إلى اغتراب الإنسان داخل الفضاء الخاص ذاته، مما يعزز تلاشي الحدود الفاصلة بين الداخل الآمن والخارج المهيد، وقد أشار إلى ظاهرة تحويل الأشياء إلى كائنات تشارك الذات شعورها بالعزلة، فمثلاً عبارة "الهاتف الذي لا يرن يؤلمني" و "صنبور الماء الذي يبكي" هذا يكشف عن تفرغ وإخلاء العالم من الحضور الإنساني الحقيقي واستبداله بأشياء صامتة . فالمسكوت عنه يتمثل بالعجز عن التواصل الاجتماعي وذلك؛ لأن الهاتف الصامت علامة ثقافية تدل على انقطاع العلاقة بالآخرين، وهذا نسق يعكس شعور الفرد بالعزلة داخل مجتمع يُفترض فيه التواصل مع الآخرين، ثم ينتقل الراوي ليعمق الاغتراب وأبعاده من وصف الأشياء إلى وصف الداخل النفسي "الفراغ الشاسع في صدري يؤلمني" فالصورة تشير إلى الفراغ الوجودي وقد تجاوز الألم الجسدي حين تصبح الذات نفسها فضاء خاوي، وهذا يوضح بأن الاغتراب لم يعد خارجي فقط؛ إنما أصبح حالة متجذرة في الوعي، ثمة ورد نسق مضمّن آخر عندما يقول الراوي "كل شيء... كل شيء" دلالة عمومية يزيل التمييز بين الأشياء، مما يعكس بأن العالم كله متساوي بالعدمية، فعندما يفقد العالم تنوعه الدلالي يصبح الوجود ذاته بلا معنى فيدل ذلك على انسحاب المعنى من الواقع اليومي الموجود. ثم يتجه النص إلى استعادة الماضي "لقد عاد كل شيء إلى ما كان عليه". هذه العودة تكشف عن مفارقة وجودية؛ لأنها لا تعني الاستقرار؛ إذ إن الأشياء عادت إلى طبيعتها بينما الذات لم تعد كما كانت فمن هنا يظهر المسكوت عنه بوصف انكسار الذات أمام ثبات العالم فإن العالم يستمر في رتابة؛ بينما الفرد يعيش انقطاع داخلي لا يستطيع الزمن إصلاحه، كما تتجلى دلالة الاغتراب في النص عندما يوظف صورة "الكأس المشروخة، والوجه المكسور في البرواز" فإن التشقق والكسر يحيلان إلى انقسام الهوية الذاتية؛ إذ يصبح الوجه وهو رمز الهوية مكسوراً، هذا يشير إلى تفكك صورة الذات في وعيها، فيبلغ هذا الإحساس ذروته في قول الراوي "أحاول عبثاً، أن أعود إليّ، إلى أناي القديمة" فان محاولة العودة إلى الماضي تكشف عن إدراك الذات لحالة التحول التي طرأت عليها؛ ولكنها تعلن عجزها عن استعادة انسجامها السابق فالاغتراب يتجلى بوصفه انفصال بين الذات وزمنها الشخصي، عندما يصبح الماضي فضاء مفقود يستحيل استرجاعه، ففي ضوء تحليل النص اتضح بأن النسق الثقافي المضمّن يقوم على اغتراب الإنسان داخل فضائه اليومي وفقدان المعنى في الأشياء البسيطة، فمثلاً الأشياء المنزلية، وتكرار الألم، والصمت فالعلامات الدلالية تعول على أزمة وجودية أعمق فبذلك يصبح الإنسان غريب عن ذاته وكذلك عن العالم الذي يحيط به، لذا يعامل كما لو كان "شيئاً جامداً، إذ يتحول إلى موضوع فاق للإحساس بذاته وهويته، الأمر الذي يفضي به إلى شعور عميق بالافتقار؛ فيغدو كائنًا بلا جذور تربطه بذاته أو بواقعه المحيط. ^(١٦) لقد وظف النص تجربة اغتراب وجودي فتجاوزت البعد النفسي الفردي لتكشف عن نسق ثقافي يُعيد تشكيل وعي الذات، فإن تشطي الصوت الداخلي، واضطراب الجسد، وكذلك الهرب المتكرر كلها تدل على انفصال الذات عن مركزها وعجزها عن فهم ذاتها، لذا فإن المسكوت عنه يتمثل في بنية قمعية لا تسمي صراحة؛ ولكنها تنتج هذا التمزق فتدفع الذات إلى الانسحاب والانكماش لذلك يجعل الاغتراب الوجودي حالة متأصلة لا طارئة. وفي الرواية نفسها نلمس نصاً آخر يقول فيه الراوي: "غفوْتُ، غفوْتُ لخمس دقائق، وجدتُ الكتابة عصية والذكرى بعيدة، وبدأ لي وكأن قوة قاهرة قد سرقت روحي، وزجّت بها في شوارع مهجورة، رأيتني أركض وألهُتُ، الظمأ يشتعل في مسامي، والخوف... كنتُ قد دفنته في الصحراء، أو تركته هناك، من هو؟ أو ماذا هو؟ لا أدري ماذا حدث.. ماذا حدث قبل أن أراني أركض، كنتُ أهرب، كنتُ أهرب من شيء مخيف، شيء مخيف فعلته أنا؟ أركض وثمة أصواتٌ تناديني ولكنني لم أتوقف لحظة واحدة، لا أثق بالأصوات، الأصوات لا تحبني، الأصوات مخيفة. لهائي يتصاعد، وقواي تتضرب، ولكنني بعيدة الآن، بعيدة عنه، عن رائحته، عن الأصوات، المكان ممتلئ بالغرباء، خطواتي تتباطأ، من ركض، إلى هرولة، من هرولة إلى مشي، ومع كل خطوة كان تعبي يتفاقم، وأحس بي أكبر، ولكنني أيضاً كنتُ أتضاءل، وأنكمش، وأصيرُ طفلةً بروج كهلة، صغيرة أنا، هشة وخائفة والذعر يملأ عيني، ولكن الحزن في روحي قديم، أراني من خارجي وأراني من داخلي، أرى اختلاجات وجهي وأسمع الدوي في قلبي، أصغر، أصغر أكثر، أصغر أيضاً، أنا طفلة في العاشرة، أنا طفلة في السادسة، أنا طفلة في الثالثة، أهبطُ على ركبتي، أحبو، مشاعري تشيخ، جسدي يصغر، أحس بتضارب الجسد والروح، الطفولة والكهولة، وقلبي ساحة المعركة... ها أنا" ^(١٧) إن النص السردي يبدأ بحالة من الانقطاع بين الذاكرة والزمن، حين يقول الراوي "غفوْتُ، غفوْتُ لخمس دقائق، وجدتُ الكتابة عصية والذكرى بعيدة" يوظف هذا النص خلل في تماسك الوعي، فتغدو الكتابة نفسها فعلاً يعكس توتر الذات؛ لأن الذاكرة تحولت إلى

فضاء غير مستقر. فإن قول السارد "وكان قوة القاهرة قد سقرت روعي" ليوثق بأن الذات لا تبدو فاعلة في تجربتها؛ إنما خاضعة لقوة وسلطة غامضة تسلب منها التوازن الداخلي فيظهر النسق المضمّر في اغتراب زمني قوي يفقد الفرد استمرارية الوعي بالتاريخ. فإن المسكوت عنه لا يُصرح به النص مباشرة وإنما يلمح إليه وفق استعارة السرقة التي طالت الروح نفسها مما يعني بتجربة القهر الوجودي وكذلك النفسي، كما وأن ملامح الاغتراب ظهرت في النص في "شوارع مهجورة" في صورة الركض عندما يتحول المكان إلى فضاء مجرد من أي حضور إنساني. فالمدينة ضمن النص من المفترض أن تكون مجالاً للتفاعل الاجتماعي تبدو خاوية في النص مما يفضي بعزلة الذات داخل الفضاء أو المحيط الاجتماعي. ثمة خلل وجودي بارز في سلسلة الأسئلة التي يطرحها الراوي "من هو؟ أو ماذا هو؟ أو لا أدري؟ ماذا حدث؟" فهذه الأسئلة لا تبحث عن جواب بقدر ما يحيل إلى فقدان المعنى وهذا أحد أبرز ملامح الاغتراب الوجودي عندما يصبح العالم غير قابل للتغير والفهم؛ وإنما فضاء غير واضح فيثير الخوف والقلق، ويتجسد هذا القلق في صورة الهرب المستمر "كنت أهرب.. أركض..". وهي القيام بأفعال حركية تقضي بمحاولة الذات الإفلات أو الهرب من تهديد غير محدد؛ ولكن هذا الهرب لا يقود إلى خلاص؛ بل إلى مزيد من الإنهاك والتعب متمثلاً بعبارة "ومع كل خطوة كان تعبي يتفاقم". ويبدو أن الركض هنا ليس حركة جسدية فقط؛ إنما استعارة للبحث عن معنى أو أمان مفقود أو مجهول. وظف النص بأن الذات تصبح مراقبة عن نفسها بدلاً من أن تكون مندمجة فيها "أرى اختلاجات وجهي وأسمع الدوي في قلبي" فتوحي بتصدع الهوية الذاتية وتفكك الهوية الفردية تحت ضغط القلق الوجودي، فإن دلالة الاغتراب في استعادة الطفولة "أصير طفلة بروح كهلة.. أنا طفلة في العاشرة.. في السادسة.. في الثالثة" ورد هنا تراجع زمني لا يوحي عن حنين إلى الماضي؛ إنما يوظف عن محاولة لا واعية للهروب من عبء الحاضر، وهذا الرجوع لا يحقق الاستقرار؛ إنما يعمق الشعور بالانكسار فتصبح الطفولة نفسها مسافة خوف وضعف، وثمة وجود صراع داخلي بين الجسد والروح بدليل قول الراوي "أحس بتضارب الجسد والروح، الطفولة والكهولة، قلبي ساحة المعركة" فهذه الصورة تقضي عن انقسام وجودي عميق داخل الذات تتصارع فيه مراحل العمر ومكونات الهوية داخل الفضاء النفسي فضلاً عن أن الناحية الدلالية توحي بوصف القلب ساحة المعركة إلى صراع داخلي يهدد تماسك الذات نفسها، وبذلك ضمن النسق الثقافي المضمّر. كشف النص عن نسق يقوم على اغتراب الذات عن نفسها وعن العالم المحيط بها فيتجلى القلق في انعدام الذاكرة أو فقدانها، فضلاً عن غياب التواصل مع المكان وانشطار الهوية بين الطفولة والكهولة، فإن المسكوت عنه جعل الإنسان يعيش داخل ذاته حالة من الصراع الدائم بين ما كان وما صار إليه ويُبين معاناة الإنسان المعاصر في مواجهة اللابقيين والقلق؛ لذا فإن اغتراب الإنسان عن ذاته لا ينشأ فجأة؛ إنما يرتبط بحالة من الكبت الداخلي، فيفقد الفرد قدرته على التحكم في سلوكه واستجاباته، وهذا العجز يخلق فجوة بينه وبين ذاته الحقيقية، ويحول دون أن يكون فاعلاً ومؤثراً في الآخرين^(١٨).

المصادر والمراجع:

- (١) لسان العرب، ابن منظور، ٦٣٧/١، العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، دار ومكتبة هلال، (د.ط)، (د.ت)، ٤، ٤١٠.
- (٢) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، دار العودة، اسطنبول، (د.ط)، ١٩٨٩م، ٦٤٧.
- (٣) سيكولوجية الاغتراب لدى طلاب الجامعة رسالة دكتوراه، أحمد خيرى حافظ، القاهرة، (د.ط)، كلية الآداب، جامعة عين شمس، (د.ت)، ٤.
- (٤) ينظر: الاغتراب الوجودي في أغاني الحارس المتعب لبلندالحيدري، الدكتور أريج كنعان، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ١٠٢، ١٥٤.
- (٥) الاغتراب الوجودي في أغاني الحارس المتعب لبلندالحيدري، الدكتور أريج كنعان: ١٥٣.
- (٦) ينظر: الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين احمد الجماعي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨.
- (٧) ينظر: ارشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب، سناء حامد زهران، عالم الكتب للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠٠٤: ١١٤ - ١١٥.
- (٨) الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، قيس النوري، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد العاشر، العدد ١، ١٩٧٩: ٣٣.
- (٩) الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين احمد الجماعي: ٣٩.
- (١٠) الاغتراب في أدب يحيى حقي دراسة أدبية من منظور نفسي، د. عطيات أبو العينين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٢٢: ١٤٠.
- (١١) ارتطام لم يُسمع له دويّ، بثينة العيسى، منشورات تكوين، الكويت، ط٦، ٢٠١٨، ٩١.

- (١٢) ينظر: المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، بحث في إشكالية القمع التربوي، على وطفة، عالم الفكر الكويتية، مجلد ٧٢، العدد ٢، ١٩٩٨ : ٢٤١-٢٨١.
- (١٣) عائشة تنزل إلى العالم السفلي، بثينة العيسى، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١٧، ٢٠٢٢ : ٦٨.
- (١٤) ينظر: الاغتراب النفسي والاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، صلاح الدين أحمد الجماعي، مكتبة مدبولي، مصر، ط ١، ٢٠٠٨ : ٤٢.
- (١٥) عائشة تنزل إلى العالم السفلي، بثينة العيسى، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١٧، ٢٠٢٢ : ١٦٢-١٦٣.
- (١٦) يُنظر: الاغتراب في أدب يحيى حقي دراسة أدبية من منظور نفسي، د. عطيات أبو العينين : ٤٥.
- (١٧) عائشة تنزل إلى العالم السفلي، بثينة العيسى، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط ١٧، ٢٠٢٢ : ١٦٤.
- (١٨) ينظر: الاغتراب في أدب يحيى حقي دراسة أدبية من منظور نفسي، د. عطيات أبو العينين : ١٤٧.